وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة القادسية/ كلية الآداب

قسم اللغة العربية

رسائل ابن أبي الخصال

مشروع بحث مقدّم من الطالبين

(حقي سعد ثابت) و (مهند محمد منديل)

إلى قسم اللغة العربية، كلية الآداب، لنيل شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها

إشراف

د . عدنان رحيم

١٤٣٩هـ ٢٠١٨م

المحتويات

الموضوع.....الصفحة

الآية..... أ

الإهداء..... ب

المقدمة.....ج- د

التمهيد.....١-٤

(ابن أبي الخصال: حياته ومنزلته الأدبية)

المبحث الأول.....٥-١٥

(الدراسة الموضوعية)

المبحث الثاني..... ١٦- ٢٢

(الدراسة الفنية)

الخاتمة..... ٢٣

قائمة المصادر والمراجع..... ٢٤- ٢٥

المقدمة

الحمد لله الذي وهبنا العلم وجعله نوراً نهتدي به، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين.

أما بعد..

فإنّ الرسائل الأدبية من أشد الموضوعات اتصالاً بالنفسية الشرقية، ويزخر أدبنا العربي بها، ولمّا كانت الرسائل الأدبية قد حازت على مكانة مهمة في الأدب فقد كان لها كتّابها الذين يجيدونها ويبدعون فيها، ومن بين أكثر كتابها شهرة في الأندلس (أبو عبد الله بن أبي الخصال)، والذي يُعد الأبرز في كتابة الرسائل حتّى أنّه لُقِبَ برئيس كتّاب الأندلس، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث لإضاءة جانب من حياة هذا الأديب واستخلاص الموضوعات التي كتب فيها ابن أبي الخصال ، وقد تمّ هذا البحث في خطته على تمهيد ومبحثين وخاتمة، كان التمهيد لإضاءة نبذة من حياة ابن أبي الخصال، أمّا المبحث الأوّل فقد جاء بعنوان " الدراسة الموضوعية" وفيه عرضنا لأنواع الرسائل التي كتب فيها ابن أبي الخصال، من رسائل ديوانية وإخوانية، مع ذكر نماذج منها، وجاء المبحث الثاني بعنوان " الدراسة الفنّية" وفيه ذكرنا أهمّ ما تميّزت بهِ رسائل ابن أبي الخصال من هيكل الرسالة واللغة والأسلوب، وقد كان كتاب رسائل ابن أبي الخصال خير معين لنا في إتمام هذا البحث، وألحقنا البحث بخاتمة جاءت لتبين أهمّ النتائج التي توصل إليها البحث، وقد واجهتنا عدة صعوبات منها قلة المصادر المتوفرة، لكن البحث تمّ

بمعونة من الله تعالى ومن أُستاذنا المشرف الذي مدّ لنا يد العون في إتمام البحث فله جزيل الشكر والامتنان على ما قدمه لنا من مساعدة وتوجيه، وأخيراً نرجو أنْ نكون قد وفقنا في عملنا هذا.

"والحمد لله رب العالمين"

التمهيد

ابن أبي الخصال: حياته ومنزلته الأدبيّة

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن أبي الخصال خلصة الغافقي[١]، ولد سنة ٤٦٥هـ، في فرغليط من جهة شقّورة[٢]، كان أشهر الكتّاب في زمانه، وعدّه الأندلسيون رئيس كتّاب الأندلس[٣]، وحفظوا رسائله حفظاً، كان من أهل المعارف الجمة، والإتقان لصناعة الحديث، والمعرفة برجاله، والتقييد لغريبه، وإتقان ضبطه، والمعرفة بالعربية واللغة والأدب، والنسب والتاريخ، متقدّماً في ذلك كله[٤]، و أُسرته أُسرة موصولة بالعلم، أصيلة فيه، وكان صاحب قلماً متدفقاً سيالاً[٥]، وصفَ لسان الدين بن الخطيب كتابته قائلاً: (وكتابة ذي الوزارتين، رحمه الله، كالشمس شهرة، والبحر والقطر كثرة)[٦].

له تاريخ حافل في الخدمة السلطانية، والحصول على الجاه والمكانة، لم يلتحق بديوان أحد من أمراء الطوائف، وأول مرابطي التحق بديوانه محمد بن الحاج القائد المرابطي والي يوسف بن تاشفين على قرطبة، حتى استدعاه علي بن يوسف بن تاشفين للعمل في ديوانه وحظى عنده بمنزلة أثيرة [٧].

ترقّى ابن أبي الخصال في الخدمة السلطانية فكتب لعلي بن يوسف بن تاشفين وهو والٍ على غرناطة، انتقل مع بني الحاج إلى فاس، وانتقل معهم إلى الثغر

---

[١] قلائد العقيان، خير الدين الزركلي: ٧/ ١٧٤

[٢] رسائل ومقامات أندلسية، تح: فوزي سعد عيسى: ١١٢.

[٣] يُنظر: رايات المبرّزين، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تح: محمد رضوان الداية: ١٨٨.

[٤] الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبد الله(لسان الدين بن الخطيب): ٢/٢٦٩.

[٥] يُنظر: رسائل ابن أبي الخصال، المقدمة بقلم المحقق: محمد رضوان الداية: ١٠.

[٦] الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب: ٢٨٢.

[٧] يُنظر: فن الرسالة عند عبد الله بن أبي الخصال، محمد لخضر بن ناجي: ٤٦

الشرقي سرقسطة، كانت دائرة أصحابه وعارفيه واسعة من رجال العصر الكبار، وفي آثاره مراسلات مع أبي بكر بن العربي وأبي إسحاق بن خفاجة، وأبي بكر بن رحيم، وأبي بكر بن عبد العزيز وغيرهم[١]، تفقّه في الأدب حتى قيل: لم ينطلق اسم كاتب بالأندلس على مثل ابن أبي الخصال، له تصانيف عديدة منها " مجموعة ترسّله وشعره" في خمس مجلدات، و" ظلّ الغمامة في مناقب بعض الصحابة" و " منهاج المناقب" و" مناقب العشرة وعمي رسول الله"[٢]، كان متفنناً بالعلوم مهتماً بها ومتقدماً فيها، صاحب لغة وتاريخ وحديث وخبر وسير، ومعرفة برجال الحديث مضطلعاً بها، ومعرفة بوقائع العرب وأيام الناس، وبالنثر والنظم، وكان جزل القول، عذب اللفظ، حلو الكلام، عذب الفكاهة، فصيح اللسان، بارع الخط حسنه ومتقنه[٣].

شارك ابن أبي الخصال في الفنون النثرية الشائعة لزمانه، فقد ألّف في لمقامات، وله مقامة جرى فيها على نهج الحريري كما أنشأ الخطب أيضاً[٤] وبرع في نظم الشعر، وله شعر كثير، فمن إخوانياته ما خاطب به أبا إسحاق بن خفاجة:

هبّ النسيم هبوب ذي إشفاق ..... يذهبن الهوى بجناحه الخفّاق

وكأنما صبح الغصون بنشوة ..... باحت لها سرائر العشاق

وإذا تلاعبت الرياح ببانه ..... لعب الغرام بمهجة المشتاق

---

[١] يُنظر: تاريخ الأدب العربي(عصر الدول والإمارات)، شوقي ضيف: ٤١١.

[٢] قلائد العقيان، خير الدين الزركلي: ٧/ ١٧٤

[٣] يُنظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب: ٢٨٨.

[٤] رسائل ابن أبي الخصال، المقدمة بقلم المحقق: محمد رضوان الداية: ١٣.

مه يا نسيم فقد كبرت عن الصّبا ... لم يبق من تلك الصّبابة باق[١]

وله مؤلفات المصنفة ورسائل مطوّلة منها ما ذكره له المقرّي في نفح الطيب كتاباً اسمه (سراج الأدب)، وله رسالة سمّاها(لمحة البارق وقذف المارق) ردّ فيها على رسالة ابن غرسية التي فضّل فيها العجم على العرب، وله أيضاً كتاب المنهج في معارضة المبهج[٢].

قُتل في سنة ٥٤٠هـ في الفتنة التي حدثت في قرطبة بين ابن حمدين وابن غانية[٣]، الفي مقتولاً قرب باب داره ، وقد سلب ما كان عليه، بعد نهب داره[٤]، قتله بربر المصامدة رجال أهل دولة اللثام لحُسن ملبسه، ولم يعرفوه، وقتلوا معه ابن أخته عبد الله بن عبد العزيز بن مسعود[٥].

---

[١] نفسه: ٢٧٠.

[٢] يُنظر: رسائل ابن أبي الخصال، أبو عبد الله بن أبي الخصال، تح: محمد رضوان الداية: ١٢.

[٣] يُنظر: رسائل ومقامات أندلسية، فوزي سعد عيسى: ١١٢.

[٤] يُنظر الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب: ٢٨٨.

[٥] يُنظر: رسائل ابن أبي الخصال، أبو عبد الله بن أبي الخصال، تح: محمد رضوان الداية: ١٢.

المبحث الأوّل

الدراسة الموضوعية

تطورت الفنون النثرية تطوراً ملحوظاً، وقطعت شوطاً بعيداً في مضمار الرقي والتقدم بعد الانفتاح الكبير على أُمم أُخرى وتمازج الثقافات، وكما هو معروف فإنّ الإنشاء رهين برقي الحياة وتطورها، وكانت الرسائل بأشكالها المختلفة في مقدمة هذهِ الفنون ازدهاراً واتساعاً، لأنّها مرتبطة أشدّ الارتباط بحياة الناس جميعاً ولا سيما العامل بشؤون السلطة[١].

إنّ فن الرسالة كان صورة حيّة لمختلف مناحي الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية والعقائدية، بكل ما فيها، وقد تنوعت الرسائل في هذا العصر ما بين رسائل ديوانية، ورسائل إخوانية، غير أنّ الرسائل الديوانية كانت أكثر كماً ونوعاً؛ لتنوع الدواوين في هذا العصر فكان هناك ديوان الخراج وديوان النفقات وديوان الضياع وديوان الرسائل وغيرها[٢].

كانت الكتابة جسراً إلى أرفع المناصب، وكل من يريد أن يدخل ديوان الرسائل يجب أن يخضع لامتحان عسير، لأنّه لا بد له من إتقان صناعة الكتابة، التي تتضمن إتقان اللغة والأسلوب، بالإضافة إلى علم الفقه وشؤون الخراج، وعلم الحساب، والإلمام بالكيمياء والطب والنجوم والفلسفة والمنطق، وهذا يعني أنّه لابد للكاتب من ثقافة لغوية وأدبية وتاريخية وسياسية، هذا فضلاً عن الثقافة الدينية[٣].

وكان لكاتب الرسائل حظ في القلوب و العيون عند أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب وبهذهِ السمة يخصه من يعظّمه في رسالة، وأهل الأندلس كثيروا الانتقاد

---

[١] يُنظر: الأدب العربي في العصر العباسي، ناظم رشيد: ١٥٢.

[٢] يُنظر: فن الرسالة عند ابي عبد الله ابن أبي الخصال(دراسة فنية أسلوبية)، محمد لخضر بن ناجي: ١١-١٢.

[٣] فنون النثر العربي القديم، جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٧، ص: ٥٦.

على صاحب هذه السمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه[١]، ونظراً لتطور النثر في الأندلس وكثرة مواضيعه وتعدد أغراضه وحرص الكتّاب على الارتقاء بمستوى الرسالة دعى ذلك الكتّاب إلى الإنتاج الأدبي وإظهار نثر جديد يتماشى مع طبيعتهم الأدبية وكان ذلك يتم بواسطة الرسائل[٢]. ويعد ابن أبي الخصال من أشهر كتّاب الرسائل في الأندلس وقد كتب في نوعين من الرسائل هما: الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية[٣]، وتعد هذهِ الرسائل ذات قيمة تاريخية كبرى فهي تضيف إبعاداً جديدة للتاريخ وتقفنا على أحداث وأخبار نفتقدها في المصادر التاريخية[٤].

---

[١] يُنظر: تاريخ الأدب الأندلسي(عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عبّاس: ٢٩٥

[٢] فن الرسالة عند أبي عبد الله ابن أبي الخصال(دراسة فنية أسلوبية)، محمد لخضر بن ناجي، ص: ١٦

[٣] نفسه: ٢٠

[٤] رسائل ومقامات أندلسية، فوزي سعد عيسى، ص: ١٨.

الرسائل الديوانية:

أو ما يسمى بالمكاتبات الرسمية، وغالباً تكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقوّاد بأقلام المتخصصين بصنعة الكتابة[١]، مما يكتب به الرئيس إلى المرؤوس والمرؤوس إلى الرئيس والنظير إلى النظير[٢]، وتصدر عن دواوين الحكّام، وتعنى بأمور الدولة وشؤونها السياسية، ويُراعى فيها دقة المعلومات والرسوم المتعارف عليها[٣]، ولها موقع خطير من حيث تشترك الكافة في الحاجة إليها، وتتناول الشؤون الإدارية والسياسية للدولة وما تتبادله الدول من علاقات فهي تختص بتصريف شؤون الدولة وما يصدر عن دواوينها ووزاراتها ومصالحها، وتصدر عن ديوان الرسائل وسُمّيت بالديوانية نسبة إليه[٤]، وقد سجلت الرسائل الديوانية أحوال السياسية وطبيعة المشكلات التي تعترضها والأساليب المتّبعة في معالجة تلك المشكلات وحلّها[٥]، ومن الرسائل الديوانية رسالة هارون الرشيد إلى عماله التي جاء فيها[٦]:

(بسم الله الرحمن الرحيم: أمّ بعد فإنّ الله ولي أمير المؤمنين وولي ما ولّاه، والحافظ لما استرعاه، وأكرمه بهِ من خلافتهِ وسلطانه، والصانع له فيما قدّم وأخرّ من أموره، والمُنْعِم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكالئُ والحافظ والكافي

---

(١) الأدب في العصر العباسي، ناظم رشيد: ١٥٢.

(٢) صبح الأعشى، القلقشندي: ٣/٩.

(٣) فن الترسّل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، فيصل حسين العلي: ٤٨.

(٤) أدب العصر العبّاسي(ظواهر بارزة ونماذج مُختارة)، علي كاظم علي المدني: ١٥٥.

(٥) الأدب الأندلسي(من الفتح حتّى سقوط غرناطة)، منجد مصطفى بهجت: ١٤٤.

(٦) جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت: ٤/ ٢٠٦.

من جميع خلقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المسئول تمام حُسن ما أمضى من قضائه لأمير المؤمنين، وعادته الجميلة عنده، وإلهام ما يرضى بهِ، ويوجب عليه أحسن المزيد من فضله).

وقد تنوعت الرسائل التي كتبها ابن أبي الخصال واختلفت مواضيعها، ومن أهم المواضيع التي كتب فيها الحرب والجهاد والعزل والتولية وغيرها.

الحرب والجهاد:

من رسائله التي تدور حول هذا الموضوع، رسالة كتب بها عن علي بن يوسف بن تاشفين لإعلام أهل الأندلس بالتأهب للجهاد والغزو العدو، وقد جاء فيها:(كتابنا- أعزكم الله بتقواه، وكنفكم بظل ذراه، ووفر حظّوظكم من حسناه، من حضرة مراكش - حرسها الله- يوم الاثنين منتصف شوال سنة سبع وخمسمائة بين يدي حركتنا- يمَّن الله فاتحتها وعُقباها- وقد قرعنا الظنابيب، وأشرعنا الأنابيب، وضمّرنا اليعاسيب، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين إخلاص نية، وصدق حميّة، في نصر الإسلام، ومنع جانبه أن يُضام، أو يناله من عدوه اهتضام.

ونحن وإنْ كنّا قد بالغنا في الاحتشاد والاستعداد، واستنهضنا من الأجناد والأمداد، ما يربى على الحصى والتعداد، فإنّا نعتقد اعتقاد يقين، بقول ربِّ العالمين، في كتابه المبين، لرسوله الأمين: (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعائكم)[1]، إنّ استنفار الدعاء، واستفتاح أبواب السماء بخالص الثناء، من أنفع الأشياء، وأنجح الدواء، فيما عضل من الأدواء، وإنّ الدعاء إذا وافق إجابة يمضي حيث ينبو الحديد

---

[1] سورة الفرقان: ٢٥.

المذرب...)[١]، والرسالة أشبه بالبيان الحربي، يستنفر المسلمين للجهاد، ويحفزهم ويستنهض هممهم لقتال الأعداء والذود عن الحرمات[٢].

وكتب إلى عسكر انهزم موبخاً لهم[٣]: (من أمير المسلمين، وناصر الدين، علي بن يوسف بن تاشفين، إلى القوم الذين استزلهم الشيطان، واستهواهم الخذلان، وغضب عليهم الرحمن، ونزل بعذابهم القرآن، إلّا من تاب، تاب الله عليهم أنْ علم في قلوبهم خيراً يقبل به متابهم، ويطهر من دنس الفرار ثيابهم، ويعتق من ذل الكبول رقابهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى رسوله الكريم، وعلى آله وسلم تسليماً، سلامٌ على رجال من المؤمنين صدفوا ما عاهدوا الله عليه، وتقربوا بالصبر الجميل إليه، ونازلوا الأقران بين يديه، ففازوا بالحُسنيين، وحازوا شرف الدرجتين، أولئك الذين يحبون ويجلون، وحين يموتون بفضل الشهادة يحيون، ويلقون في دار الكرامة ما يلقون...).

ومن رسالة له عن بعض المرابطين إلى علي بن يوسف بن تاشفين، يقول فيها: (أطال الله بقاء أمير المسلمين، وناصر الدين، مؤيداً بجنودهِ معاناً بتوفيقه وتسديده، ولا زال عدله ينعش الأُمم، وسعده ينهض الهمم، كتبت – أدام الله تأييده- من قرطبة – حرسها الله- لستٍ بقين من جمادى الآخرة، وقبل بثلاثٍ وافيتها من الوجهة التي صحبتني ومن معي فيها يمن أمره، واكتنفتنا عزة نصره، بعد أن أودعنا حصن أُرلية

---

[١] أبو عبد الله بن أبي الخصال(رئيس كتّاب الأندلس)، فوزي سعد عيسى، ص: ٥٩.

[٢] نفسه: ٦٠.

[٣] رسائل ومقامات أندلسية، تح: فوزي سعد عيسى، ص: ١١٢.

– حماه الله- قوتاً موفوراً، ومرفقاً كثيراً، وحطت عندهم الأسعار، وعمّ الاستبشار، وتسلّم أبو الخيار مسعود الدليل – سلّمه الله- الحصن واحتوى عليه، وصار أمره إليه) [١].

وعلى هذا النحو برع ابن أبي الخصال في تهيئة المناخ النفسي الملائم من شحذ العزائم واستنهاض الهمم وتهيئة النفوس واستنفارها للجهاد في سبيل الله.

التولية والعزل:

وهو لون آخر عالجه ابن أبي الخصال لفي نثره الديواني، وقد طبعها بطابعه ولونها بطريقته الخاصة، من حيث الاتكاء على الطابع الديني، وتناول المعنى على نحو من التركيز والإيجاز مع نصاعة الأسلوب، وطلاوة اللغة، فمن ذلك رسالة كتبها عن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين إلى ابنه تاشفين حين انضافت إليه ولاية قرطبة[٢]، ومما جاء فيها: (وقد رأينا والله نساله الخير فيما نرتبه والتوفيق في كل ما نصنعه– أن نجمع لك قرطبة و أعمالها إلى ذلك العمل الذي أنت فيه، فإذا وقفت على كتابنا هذا، فانهض بنفسك على بركة الله إلى هناك، واجعل قرطبة دار سكناك وقرارة مثواك، وعلى مقدار ما زدناك من العمل فازدد من التيقظ لاتساع ذرعك وامتداد مساعك، واستعن بالله في إعلانك وإسرارك، وخذ من أوقات ليلك لأوقات نهارك، واجعل لنظرك حظاً من سهرك، ولفكرك مستمنحاً من تدبرك، واستظهر بحسن المشورة في مواطن الاشتباه، فإنّ الله سبحانه يقول لرسوله صلى

---

[١] رسائل ابن أبي الخصال، أبو عبد الله بن أبي الخصال، تح: محمد رضوان الداية: ٤٩٣.

[٢] فن الرسالة عند أبي عبد الله بن أبي الخصال(دراسة فنية أسلوبية)، محمد لخضر بن ناجي: ٣٠.

الله عليه وسلّم : (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله)[١]، واستخلف على غرناطة بعد انفصالك عنها أبا محمد الزبير بن عمر، أعزه الله بتقواه وألزمه استشعارك مراقبة الله تعالى من الذي نلزمك إياه، وأعهد إليه بشاكلة ما نعهد إليك، والمستعان الله، ولا رب سواه) [٢].

الرسائل الإخوانية:

هي التي يتبادلها الأصدقاء فيما بينهم في مناسبات شتى، وكانوا يتأنقون في صياغتها ويُعنون بديباجتها، ويسندونها بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال الصحابة والتابعين، والأشعار والأمثال والحكم[٣]، وتمتاز هذهِ الرسائل بتنوع موضوعاتها، كإظهار المودة والتشوق والتهنئة والعتاب وغير ذلك[٤].

واعتمدت هذهِ الرسائل على أسلوب الهزل والمداعبة لدفع السأم عن النفس والترويح عنها[٥]، ويغلب على هذهِ الرسائل الإطناب والإطالة ويغلب فيها ظهور العواطف الإنسانية، ويظهر فيها السجع وحسن اختيار الألفاظ[٦].

---

[١] آل عمران: ١٥٩

[٢] البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد بن عذاري: ٣/ ٧٢.

[٣] الأدب العربي في العصر العباسي، ناظم رشيد، ص: ١٥٣.

[٤] رسائل ومقامات أندلسية، فوزي سيعد عيسى: ٢٠.

[٥] يُنظر: الأدب الأندلس(من الفتح حتّى سقوط غرناطة)، منجد مصطفى بهجت:١٤٤.

[٦] ينظر: أدب العصر العباسي، علي المدني: ١٥٦.

وتشغل الرسائل الإخوانية مساحة واسعة من نثر ابن أبي الخصال على غرار الرسائل الأُخرى، وتشير هذهِ الرسائل إلى صلته بمعاصريه من الأُدباء والعلماء والفقهاء[١].

التهنئة:

رسالة له يُهنئ بها بعض الرؤساء بمقدمه، يقول فيها:(ولدينا من الاستبشار بمقدمه الحميد، و الاستشراف إلى احتلاله السعيد، و الدُّعاء المتواتر بالتّوفيق و التّسديد، ما يكون عند من تحقق محله المنيف، و نصابه الرفيع الشريف. و الله يجيب فيه صالح الدعاء، و يهنئه و يهنئنا فيه، ما البسه من جميل الذكر و الثناء، فهو ولي الفضل و النعماء، بعد وصول الكتابين الكريمين، و التذكرة المقترنة بالثاني منهما، فقرأنا جميع ذلك و وعيناه، و صرنا إليه و امتثلناه، و وقع النظر فيما تضمّنته التذكرة من الأسباب المقدمة نحوه، و الأسباب المأمور بإعدادها و جميعها عتيد إلى أن يقدم بحول الله)[٢].

ومن رسالة اخرى ينئ فيها عاملاً، جاء فيها:(يا عمادي الأعظم، ومصادي الأعصم، وردأ استظهاري الأكرم، وإمامي الاهدى في الخطبِ إن أعتم، و من أطال الله بقائه لعزٍّ يستأنفه مشيد، وعمر يستقبله جديد، ومهل سائغ الظل مديد، كتبت- أدام الله عزك- والقتاد ثمار، والثمار غمار، وعود الزمان -بعودتك الحميدة- نضار)[٣].

---

[١] فن الرسالة عند عبد الله بن أبي الخصال، محمد لخضر بن ناجي: ٢١.

[٢] رسائل ابن أبي الخصال، تح، محمد رضوان الداية، ص: ٨٠

[٣] رسائل ابن أبي الخصال، تح، محمد رضوان الداية، ص: ٦٢

التعازي:

لابن أبي الخصال مجموعة من الرسائل موضوعها التعزية، يجمع فيها بين موضوع الرثاء في الشعر، فلا فرق بين رسالة التعزية وقصيدة الرثاء إلّا القالب الشكلي فالقصيدة منظومة والرسالة منثورة، أمّا المعاني فتكاد تكون واحدة؛ لأنّ الكاتب ينحو فيها منحى الشعراء من الإشادة بمحاسن المتوفى والإكثار من التفجع لفقده، وإظهار مدى الخسارة التي حاقت بأهله والدعوة إلى التأسي والتحلي بالصبر[١]، قال معزياً:(بلغتني الفجيعة الوجيعة بالنجيب الحسيب ريعانة أُنسكَ، ومن نفسه مشتقة من نفسك، آواه الله إلى رضوانه، ونعّمه في جنانه، وثقّل به ميزانك، واخلى من الفجائع زمانك. فأخذت من ثكله بالحظ الأوفى و ساهمت فيه مساهمة الولي الأحفى)[٢].

وكتب إلى القاضي الإمام أبي الوليد بن رشد يعزيه بابنه الأصغر، قال فيها: (الخطب لا أحسَّهُ، والقرح لا وجَد مَسَّهُ – لو تنكّبَ زعيماً، وتخطّى جليلاً في النفوس عظيماً، و راقبَ ديناً، و تحامى مؤتمناً على كنز العلم أَميناً لا ستثني من قدره، و سلم على ورده و صدره، وإذ لا سبيل إلى الخلود، ولا مذهب عن تعثير الجدود، و تعفير الخدود، فاحق من عرف لله تعالى حقه، و عصى داعي الجزع و عقه، من استعبد هواه واسترقّه، وباء باسم الإمامة واستحقه)[٣].

---

[١] فن الرسالة عند عبد الله بن أبي الخصال، محمد لخضر بن ناجي: ٢٦.

[٢] رسائل ابن أبي الخصال، تح، محمد رضوان الداية، ص: ٦٥.

[٣] نفسه، ص: ٩٤.

في رسالته هذهِ يؤكد على الجانب الوعظي، وهو بصدد التعزية والمواساة، فهو يدعو إلى التجلد والتأسي، وابن أبي الخصال في أغلب تعازيه يتكئ على الجانب الوعظي الذي يهيمن على كثير من موضوعاته النثرية، وقد يكون سبب ذلك هيمنة الثقافة الدينية على تكوينه.

المبحث الثاني

الدراسة الفنّيّة

إنّ جماليات النص الأدبي تكتمل من خلال الكشف عن أهم العوامل الفنية التي شاركت في إثراء التجربة النثرية، وقد عمد ابن أبي الخصال إلى الاستعانة بأساليب مختلفة داخل النص، ووظفها بطرق فنية جميلة، تُمكّنه من إيصال الفكرة للمتلقي، مُعتمداً في ذلك على لغة شعرية واضحة وبسيطة[١]، وسنتطرق إلى أهم الجوانب الفنية التي ميّزت رسائل ابن أبي الخصال ومنها:

هيكل الرسالة:

جرت العادة لدى معظم الدارسين على تقسيم الرسائل إلى نوعين هما الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية، وتُمثل هذهِ الرسائل الطريقة الفنية المعتمدة في عصرها، من حيث الالتزام بالسجع في أواخر الفقر والفواصل، وتوشيتها بالشعر والأمثال، والتورية بالأسماء، وتضمين القرآن والحديث، وكانت هذهِ العناصر مطلباً يسعى كل كاتب إلى تحقيقها في رسائله، إذ كانت مهارته تُقاس بمدى أخذه من هذهِ العناصر وتوظيفه لها[٢] أخذت الرسائل الديوانية والإخوانية تنحى منحاً معيناً في طريقة كتابتها تقوم على ثلاثة عناصر أساسية هي[٣]:

المقدمة والتي تشمل في معظمها على البسملة، ثم احتوائها على العنوان الذي عينه المرسل والمرسل إليه، ثمّ ينتقل بعدهما الكاتب إلى غرض آخر وهو الموضوع الأساسي في الرسالة، وغالباً ما تبدأ الرسائل الإخوانية بمقدمة قصيرة يخلع فيها الكاتب على من يخاطبه من أصحابه بعض الألقاب مثل: " السيد الأمجد" أو "

---

[١] يُنظر: فن الرسالة عند عبد الله بن أبي الخصال، محمد لخضر بن ناجي، ص: ٤٣.

[٢] رسائل ومقامات أندلسية، فوزي سعد عيسى، ص: ٢٣

[٣] فن الرسالة عند عبد الله بن أبي الخصال، محمد لخضر بن ناجي، ص: ٤٣.

السيد الأوحد" أو " ملاذي الأعصم" أو " عمادي الأعظم"، يتلوها بعض الأدعية القصيرة[١].

والرسالة الإخوانية لدى ابن أبي الخصال تقوم على بناء محدد المعالم، فهي غالباً ما تبدأ بمقدمة يتوجه فيها بالخطاب إلى صديقه الذي يكون غالباً من الأدباء، ويخلع عليه بعض النعوت التي تتواقف ومكانته الأدبية، ويدعو له بطيب العيش ويُعبر عن شوقه إليه ويؤكد تمسكه بعهود الصداقة في عبارات قصيرة متتابعة[٢]، فمن ذلك ما كتب في أحدى رسائله الإخوانية قائلاً: (سيدي الأعلى، وشهابي الأنفس الأجلى، وحسنة الدهر المُثلى، بقيت في نعمة لا تُبلى، وإقبال وجهه يتجلى ولا يتولى، ولا زلت تجني من آمالك الثمر الأعذب الأحلى؛ رُبَّ حظّ لمكانة يُرجا، وموهبة بعد اليأس منها تفجأ، ومكرمة إلى حينها تُصان وتُخبا)[٣].

وتختلف النعوت والأوصاف باختلاف مكانة المُخاطب، وقد يستهل رسالته بأبيات من الشعر من نظمه أو من نظم غيره تتوافق وموضوع الرسالة، وتخلو رسائله من صيغ الافتتاح التي كانت شائعة في المشرق العربي كالبدء بالبسملة والحمد[٤].

لم تكن مقدمات ابن أبي الخصال منفصلة عنى مضمون الرسالة، إذ نجده يشير في صدور رسائله إلى الغرض المذكور، ولم يشذ ابن أبي الخصال عن تقاليد

---

(١) رسائل ومقامات أندلسية، فوزي سعد عيسى، ص: ٢٣.

(٢) يُنظر: أبو عبد الله بن أبي الخصال(رئيس كتّاب الأندلس)، فوزي سعد عيسى: ١٦٠.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال، محمد رضوان الداية: ١٦٢

(٤) يُنظر: يُنظر: أبو عبد الله بن أبي الخصال(رئيس كتّاب الأندلس)، فوزي سعد عيسى:١٦١.

الكتابة السائدة في عصرهِ، ولم تسلم خواتيم رسائل ابن أبي الخصال من التقاليد السائدة، إذ نجده يختم رسائله بإقراء السلام والدعاء للمخاطب بدوام العز وطول العمر، تحرى ابن أبي الخصال في أدعيته، الألفاظ التي تناسب الحال، وتشاكل المعنى وتوافق المخاطب لكنه لا يكثر منه في مقدماته وخواتيمه[١]

---

[١] يُنظر: نفسه: ١٦١.

اللغة:

ولغة ابن أبي الخصال سهلة بسيطة واضحة، فهو قد قرأ اللغة على يدي كبار علماء عصره، فضلاً عن تلقيه القرآن حفظاً وتفسيراً، وقد أشار هو إلى ذلك قائلاً[١]: (وما امتطيت من المشقة ما امتطيت، ولا تخطيت إلى الأئمة ما تخطيت، إلا لتلقي القرآن غضاً من أفواههم، وتثقيف أود الحروف عن ألسنتهم وشفاههم، فيتصل بالأداء الأداء، ويرتقي بنا الاهتداء، في أقوم سمت، وعلى غير عوج ولا أمت)، ومن يقرأ رسائل ابن أبي الخصال يجد نفسه إزاء كاتب متمرس باللغة متمكن منها، أنّ مجمل الألفاظ التي استخدمها في رسائله تكاد تُشكل معجماً لغوياً لا يُستهان به[٢]، ولا تكاد رسالة من رسائله تخلو من الألفاظ المُعجمية ، وتطرد هذهِ الظاهرة في جميع رسائله ومن أمثلتها في رسائله، رسالة كتبها في تهنئة عامل بولايته، فجاء فيها من هذهِ الألفاظ: (المصاد، الخطام، الكعام، القتاد..) وتكثر هذهِ الألفاظ في رسائلهِ الإخوانية، ومن أمثلة ذلك قوله[٣]: (فإني تركتك بعدي على أوفار وأثافي حوار والرأي شعاع والأمل قطوف ووساع)، وقد مكّنه محصوله اللغوي من بسط معانيه في طواعية، واختيار الألفاظ المناسبة للمعنى ووضعها في مواضعها الصحيحة[٤].

---

[١] أبو عبد الله بن أبي الخصال(رئيس كتّاب الأندلس)، فوزي سعد عيسى، ص: ١٨٤.

[٢] يُنظر: فن الرسالة عند عبد الله بن أبي الخصال، محمد لخضر بن ناجي، ص: ٤٥.

[٣] يُنظر: أبو عبد الله بن أبي الخصال(رئيس كتّاب الأندلس)، فوزي سعد عيسى، ص: ١٨٥

[٤] يُنظر: نفسه: ١٨٥

الأسلوب:

إنّ الأسلوب الذي هو الطريقة التي يعتمد عليها الكاتب في إنشاء رسائله وأشعاره، فإنّ الأسلوب يُعد وجه الكاتب وعموده، وكان ابن أبي الخصال شديد الكلف باستخدام المشتقات على اختلاف أنواعها، وتلك الخاصية من أبرز خصائصه الأسلوبية[١]، ومن أمثلتها قوله في إحدى رسائله[٢]: (وأما أخلوقة العرّاف، وسمو الذوائب نحوها والأعراف، فهي نهزة كل رائم، وحلوبة لا قاعد ولا قائم، وجحش تبذّه الأعيار، ومموه يكشفه المعيار، وما مشت إلّا في خفارات الإخوان، ومعارات الاستحسان، وما ودوه فمودود، وما ردّوه وبهرجوه، فمبهرج مردود).

وتعد معظم رسائل ابن أبي الخصال ذات طابع إنشائي، وقد طغى في معظم رسائله على الطابع الخبري وتلك خاصية بارزة في نثره عموماً، فلقد جعل الأسلوب الإنشائي عمود رسائله لأنها أقوى من الأسلوب الخبري في إحداث التأثير النفسي لدى المتلقي[٣].

ومن الأساليب التي استخدمها ابن أبي الخصال في رسائله الإطناب، فإنّ أسلوب ابن أبي الخصال يقوم على الإطناب والتوسع في رصف الألفاظ، وبسط المعاني، وهذا مردّه ثراءه اللغوي كما أشرنا سابقاً، ومن مظاهر هذا الإطناب: الميل إلى الترادف والتكرار، وتقليب المعنى على وجوه مختلفة، والمزاوجة بين الجمل

---

[١] يُنظر: أبو عبد الله بن أبي الخصال(رئيس كتّاب الأندلس)، فوزي سعد عيسى، ص: ١٨٦.

[٢] نفسه: ١٨٦.

[٣] يُنظر: فن الرسالة عند عبد الله بن أبي الخصال، محمد لخضر بن ناجي، ص: ٤٦

والعبارات[١]، ومن أمثلة ذلك قوله[٢]: (لا جرم أني بعد أن لثمت ثراها، وقدست ورودها وسراها، وقريتها من التعظيم قراها، رمت الترفّع في مضمارها، والتطلع في أنوارها، بل التلفع بغبارها، والتعلق بأذيال آثارها).

ونلاحظ في نثر ابن أبي الخصال روحه الشعرية، فهو يقترب من روح الشعر في مواطن عديدة من رسائله حتى يُخيل للقارئ أنّه يقرأ شعراً لا نثراً، فقد استطاع الكاتب في رسائله المزج بين الشعر والأخيلة الموسيقية، وجعلها من روحه الشاعرة، حيث جعلها تبدو وكأنّها قصائد نثرية[٣]، فمن ذلك قوله)[٤]: (هنيئاً لك ما استحللت وأهلاً وسهلاً ما استهلت، صدقت، أنا المسيء، والمستقيل الفيء، وفت ذممك وصفت مواردك وديمك، ما لمن تؤخره استقدام ولا لمن يهون عليه الكرام ولا لمن تخطؤه رضاك وراء ولا أمام!، أقرُّ الكلام ولم أجنيه، وأردُّ هذا الماء على أجنه، وأجنب- ولو قطع الوريد- ما أُريد لما تريد-).

---

[١] يُنظر: أبو عبد الله بن أبي الخصال(رئيس كتّاب الأندلس)، فوزي سعد عيسى، ص: ١٨٧

[٢] المصدر نفسه: ١٨٧.

[٣] يُنظر: فن الرسالة عند عبد الله بن أبي الخصال، محمد لخضر بن ناجي، ص: ٤٧.

[٤] نفسه: ٤٧.

الخاتمة:

تبيّن لنا من خلال هذهِ الدراسة عدّة نتائج بالغة الأهميّة منها:

١-إنّ فن كتابة الرسالة في الأندلس هي امتداد للأدب العربي في المشرق.

٢-انقسمت الرسائل عند ابن أبي الخصال إلى نوعين أساسيين هما: الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية، كما وتعددت المواضيع التي كتب فيها.

٣-طغى الأسلوب الإنشائي على رسائل ابن أبي الخصال، كما اتسمت رسائله بالروح الشعرية العالية.

٤-شارك ابن أبي الخصال في فنون أدبية أخرى إلى جنب كتابته الرسائل كنظم الشعر وكتابة المقامة.

٥-حرص ابن أبي الخصال على الثراء الموسيقي الذي من عناصرهِ الموازنة بين الجمل مع استخدام السجع.

قائمة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم**

١- الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبد الله(لسان الدين بن الخطيب)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢- الأدب الأندلسي(من الفتح حتّى سقوط غرناطة)، منجد مصطفى بهجت، مؤسسة السيّاب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط٣، ٢٠١٢.

٣-الأدب العربي في العصر العباسي، ناظم رشيد، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٩.

٤- أدب العصر العبّاسي(ظواهر بارزة ونماذج مُختارة)، علي كاظم علي المدني، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، ط١، ٢٠١٦.

٥-البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، أبو العباس أحم بن محمد العذاري، حققه وضبط نصه وعلّق عليه: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١٣.

٦-تاريخ الأدب الأندلسي(عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عبّاس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، الإصدار الأول، ١٩٩٧.

٧-تاريخ الأدب العربي(عصر الدول والإمارات)، شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٩.

٨-جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٣٧.

٩- رايات المبرّزين، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تح: محمد رضوان الداية، طلاسدار للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٧.

١٠- رسائل ابن أبي الخصال، المقدمة بقلم المحقق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق- سوريا، ١٩٨٨.

١١- رسائل ومقامات أندلسية، تح: فوزي سعد عيسى، منشأة معارف الإسكندرية.

١٢- فن الترسّل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، فيصل حسين العلي، رسالة ماجستير، كلّية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس- فلسطين، ٢٠٠١.

١٣- فن الرسالة عند عبد الله بن أبي الخصال، محمد لخضر بن ناجي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد خضير بسكرة، الجزائر، ٢٠١٥.

١٤- فنون النثر العربي، جامعة القدس العربي، ٢٠٠٧.

١٥- قلائد العقيان، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، الطبعة١٥، ٢٠٠٢.